مدرسة الإسكندرية

الإنسان: ذكرًا وأنثى (٤)

د.جورج عوض إبراهيم

إن لم تؤمنوا فلن تفهموا

العدد الخامس - ٢٠١٠

مجلة مدرسة الإسكندرية

عدد ٥

الإنسان ذكر وأنثى (٤)
إنسان اليوم الثامن

د. جورج عوض إبراهيم

الإنسان ذكر وأنثى (٤)
إنسان اليوم الثامن

د/ جورج عوض إبراهيم
دكتوراه في العلوم اللاهوتية - جامعة أثينا
باحث بالمركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية

الكمال الأخروي للطبيعة البشرية:

تَحدَّثنا عن التعليم المسيحي الكتابي بخصوص خلق الإنسان والمسيرة التاريخية للطبيعة البشرية. والأنثربولوجية المسيحية لا تُحدِّثنا فقط عن المرحلة الأولى والأرضية للإنسان، لكنها تُحدِّثنا أيضًا عن غاية خلق الإنسان؛ أي تتحدَّث عن ألف باء مغامرة الحياة البشرية. إذن، نستطيع أن نقول إن نور الإعلان الإلهي ينير بالأكثر غاية وهدف ونهاية تاريخ الإنسان وليس فقط بداية هذا التاريخ. إن التعليم عن الأنثربولوجية المسيحية التي تشير إلى المرحلة الأخيرة أو الأخروية للتاريخ يعطي عناصر غنية بخصوص الحالة البشرية بعد قيامة البشر العامة وتجديد العالم، عندما تتجدد حالة الإنسان وكذلك الخليقة الماديّة في اليوم الثامن الأبدي.

إذن سنرى، في هذه المقالة الأخيرة، بعض المواضيع الأساسية للتعليم المسيحي عن استعادة كمال الطبيعة البشرية.

(١) تطابق الإنسان بنموذجه:

إن حالة الطبيعة البشرية المتغيرة ليست قاطعة وأبدية. لقد وضع الله حدًّا زمنيًّا، فيه تنتهي هذه الحالة المتغيرة. هذا الحد هو الموت. الموت، كنهاية للحياة الجسدية لكل إنسان وللعالم كله. هذه الوسيلة التي قصد بها الشيطان فناء الجنس البشري، قد استخدمتها محبة الله لقطع ذيل الشر وتجديد الإنسان والكون. هكذا التعليم المسيحي يخبرنا أولاً: إن الموت ليس هو نهاية الحياة ووجود الإنسان والعالم. ثانيًا: حالة الإنسان والعالم المتغيرة سوف لا تبقى على حالها، لأنه بواسطة الموت والقيامة سوف يغيرها الله ويجددها، أي سوف يجدد

اللّه الإنسان والخليقة كلها. الإنسان والخليقة سوف يمران من خلال الموت إلى الحياة، من حالة السقوط والفساد والموت إلى واقع جديد أبدي، لا زمني، يدعوه الإيمان المسيحي الأرثوذكسي: «اليوم الثامن». لذا يقول القديس كيرلس الإسكندري: "إن ربنا يسوع المسيح لما ذاق الموت من أجل الجميع، بل وقام في اليوم الثالث، قد صار بذلك باكورة للراقدين، وأصلاً للذين يُخلقون من جديد بواسطته للحياة، كبداية لطبيعة بشرية جديدة قد خلعت عنها الفساد"[1].

سوف تكتسب الطبيعة البشرية ـ في اليوم الثامن ـ الشكل النهائي والقاطع، ستزدهر ثمرة الخلق «بحسب صورة اللّه» ويتم تحقيق هذا «بحسب مثال اللّه». هذا يعني أن الطبيعة البشرية سوف تصل إلى كمالها واكتمالها الأخروي والتي فيها تظهر عليها ملامح نموذجها الذي تكلمنا عنه بالتفصيل. وهنا، يمكننا أن نذكر بعض هذه الملامح الخاصة باليوم الثامن:

(أ) إعادة الإنسان إلى رتبته الملوكية:

خلق اللّه الإنسان ليكون «ملك الخليقة»، لذلك أحاطه بموهبة السيادة. وبسب السقوط مارَّس الإنسان ـ في مرحلة الزمن التاريخي لليوم السابع ـ بدرجة نسبية وبطريقة غير كاملة وخاطئة رتبته الملوكية والسيادية. لكن، بإشراق اليوم الثامن الجديد والأبدي أُعيد الإنسان تمامًا إلى رتبته الملوكية. الملك الساقط سوف يُتوج مرة ثانية على عرشه، تلك المكانة المعينة له من جانب الخالق قبل خلق العالم المادي.

هذا يعني أن الإنسان في الحالة الجديدة لليوم الثامن سيتحقق فيه الملمح الأول للنموذج الخريستولوجي؛ أي سيصير الرابطة بين المخلوق والخالق، وسوف يوحِّد العالم بخالقه مثل المسيح ـ نموذجه ـ الذي وحَّد في شخصه الطبيعة الإلهية بالطبيعة البشرية. إعادة الإنسان إلى رتبته الملوكية قد أخبرنا عنها سفر الرؤيا نبويًّا، مقدمًا لنا أناس اليوم الثامن متوَّجين بتيجان من ذهب[2].

---

[1] القديس كيرلس الإسكندري، تفسير أشعياء ١٩:٢٦، PG 70:588.

[2] انظر رؤ ٤: ٤، ٦: ٦.

كذلك، يعطينا النبي إشعياء أيقونة جميلة لإعادة الإنسان إلى رتبته الملوكية ومصالحته مع الخليقة غير العاقلة في إصحاحه الخريستولوجي المعروف الإصحاح الحادي عشر: «فيسكن الذئب مع الخروف ويربض النمر مع الجدي والعجل والشبل والمسمن وصبي صغير يسوقها» (إش١١: ٦).

على الجانب الآخر، سيستعيد إنسان اليوم الثامن رتبته الكهنوتية. وهذا يعني أن الإنسان سيتناول ثمار الأرض «بفرحٍ» في شركة مع الله مشاركًا في «العشاء الإلهي». وسوف يقدمها ثانية بعرفانٍ إلى الخالق ككاهن للخليقة. كما تحدثنا في المقالات السابقة.

(ب) كمال الشخص الإنساني:

لقد خلق الله الطبيعة البشرية منذ البداية بوجهين «ذكر وأنثى». هذا التمييز الخاص بالطبيعة البشرية إلى جنسين كان دعوة وإمكانية لكل من الرجل والمرأة لكي يكتسب كل واحدٍ منهما ملء واكتمال شخصيته، كما قلنا في البداية. على الجانب الآخر، يؤكد هذا الهدف نموذجهما: المسيح؛ الذي قدَّم في شخصه نموذج الإنسان الكامل والمكتمل.

إن الإنسان سيصل إلى شخصيته الكاملة والمكتملة في «الولادة الثانية»[٣] لليوم الثامن. وهذا يعني أن البشر: الرجل والمرأة سيصلان وسيكتسبان وحدة الطبيعة. وسوف تتوقف تجزئة الطبيعة البشرية إلى جنسين، كما نعرفهما اليوم، بينما كل واحد سيستمر في الوجود كشخصٍ سواء أكان ذكرًا أم أنثى، سيكون كل من الرجل أو المرأة بمثابة شخص كامل ومكتمل. هذا المفهوم نراه في كلام المسيح عندما قال: «لأنهم في القيامة لا يُزوجون ولا يتزوجون بل يكونون كملائكة الله في السماء» (مت ٢٤: ٣٠).

فالشخص ـ ذكرًا أو أنثى ـ سوف يرتفع إلى حاله الكمال والاكتمال كما حدث في شخص المسيح. فكل إنسان ـ ذكرًا أو أنثى ـ سيصير شخصًا بشريًّا

[٣] انظر مت١٩: ٢٨.

كاملاً: إنسان تام وكامل. سينال البشر ـ في اليوم الثامن ـ ملء الكائن البشري الذي أظهره المسيح وعلَّمه الكتاب.

ويشدِّد القديس بولس على أن هدف كل إنسان هو اكتساب كمال وملء وجوده: «إلى أن ننتهي جميعًا إلى وحدانية الإيمان ومعرفة ابن الله إلى إنسان كامل إلى قياس قامة ملء المسيح» (أف٤: ١٣). وسيحدث هذا عندما تبطل حالة بعد السقوط ويأتي الكامل «الكمال الأخروي لكل إنسان»[٤].

لذا، يعْلِمنا يعقوب بأن هدفنا كلنا هو أن نصير «تامين وكاملين وغير ناقصين في شيء» (يع١: ٤). الكلام هنا، عندما يكتسب الشخص البشري ـ ذكرًا أو أنثى ـ شكلاً وبهاءً الوجود الملائكي: «حينئذٍ يضيء الأبرار كالشمس في ملكوت أبيهم» (مت١٣: ٤٣).

(ج) التقديس التام للشخص البشري:

في اليوم الثامن لملكوت الله، سوف ينال الإنسان اتحاده القاطع والحاسم مع المسيح؛ الذي هو نموذج وجوده، وسينال أيضًا التقديس التام لشخصه البشري بحسب النعمة. أي أن الإنسان ـ بنعمه الله ـ سيتحد بالعنصر الإلهي، بحسب صورة المسيح، ويصير إنسانًا إلهيًّا وابنًا لله بحسب النعمة. هذا الاتحاد بين الإنسان والمسيح هو بمثابة زواج الطبيعة البشرية بالعريس المسيح.

ويوضح القديس إيرينئوس هذا الأمر، قائلاً: "إن المسيح قد ألفَّ ووحَّد الإنسان مع الله، لأنه لو لم يكن الإنسان قد اتحَّد بالله لما استطاع أبدًا أن يشترك في الخلود. لذلك كان ينبغي أن الوسيط بين الله والناس ـ بسبب انتسابه لكل منهما ـ يعيد الألفة والتوافق، حتى إن الله يقبل إليه الإنسان والإنسان يقدم نفسه لله. فبأي وسيلة كان يمكننا أن ننال التبني لله؟ إلاَّ بأن نحصل بواسطة الابن على الشركة مع الله، وذلك بأن يصير **كلمة** الله مشاركًا لنا، بأن يصير

[٤] انظر ١كو١٣: ١٠.

جسدًا؟ لذلك فقد جاء مجتازًا في جميع القامات حتى يسترجع للجميع الشركة مع الله"[٥].

(د) كمال الكنيسة كشركة إلهية إنسانية لأشخاص:

سيكون ملكوت الله الأبدي في مرحلته الأخيرة والقاطعة تعبيرًا للنموذج الثالوثي للطبيعة البشرية. وعندئذٍ سيُعلن المفهوم الحقيقي لقول الخالق: «ليس جيدًا أن يكون آدم (الإنسان) وحده» (تك٢: ١٨)، لأن إرادة الله الأزلية وخطته كانا يهدفان لتكوين كنيسة إلهية إنسانية كشركة إلهية إنسانية لأشخاص بحسب نموذج الشركة الإلهية بين الأقانيم الثلاثة. إذن، في الحالة الأخروية سيتحول الشخصان البشريان إلى شخصين بشريين إلهيين. هذا التحقيق التام للكنيسة كشركة إلهية إنسانية لأشخاص في النصوص المسيحية الأخروية يُرمز له بأيقونة الزواج: زواج الحَمَلْ مع العروس. أخيرًا، سيكون تحقيق الكنيسة الأخروي ـ كاتحاد نهائي للمخلوقات ـ مع الخالق انتصارًا للمسيح.

(٢) صور محدودة لحالة الإنسان الأخروية:

يخبرنا تعليمنا المسيحي مسبقًا عن حالة الإنسان المكتملة في ملكوت الله الأبدي، كما قلنا سابقًا. لكن هذا التعليم، كما يؤكده التقليد الأرثوذكسي، يعطينا رموزًا وصورًا تأتي من طريقة الحياة الأرثوذكسية، إذ أنها تقدم حالة إنسان اليوم الثامن الكاملة. ومن هذه الصور: الأيقونة الأرثوذكسية، العبادة وخاصة الليتورجيا الإلهية، الأسرار المقدسة وخاصة سريَّ المعمودية والزواج.

(أ) إستعادة الكمال الإلهي البشري في الأيقونة:

الحديث هنا هو عن أيقونه بيزنطيّة للمسيح في الهيكل وهو محاط بوالدة الإله ويوحنا المعمدان[٦]. هذه الأيقونة ذات الأشكال الثلاثية تدُعي أيقونة

---

[٥] القديس ايرينيئوس: ضد الهرطقات ٣:١٨:٧. SC 211: 365-367

[٦] تحتفظ بعض كنائسنا القبطية الأثرية بمثل هذه الأيقونة، إذ توجد أيقونة تجمع المسيح مع والدة الإله والقديس يوحنا المعمدان في كنيسة العذراء المعلقة بمصر القديمة وترجع إلى القرن الرابع عشر.

التضرع. المحور المركزي لهذا العرض الثلاثي الأشكال هو المسيح: الإله الإنسان، الإنسان الكامل ونموذج الإنسان الكامل. أي في شخصه يوجد ملء الطبيعة البشرية،واتحدت ـ بطريقة فريدة لا تتكرَّر ـ الطبيعة الإلهية بالطبيعة البشرية. فالمسيح هو آدم الجديد والأزلي، الأصل الحقيقي للبشرية.

وعن يمين المسيح توجد صورة والدة الإله، حيث إنها تصوِّر نموذج الشخصي الأنثوي الكامل للدهر الآتي. إنها حواء الجديدة والحقيقية التي حملت كل مواهب الشخص الأنثوي، تلك المواهب التي أهدرتها حواء الأولى. وفي أيقونة والدة الإله صُوِّر الشخص البشري الأنثوي التي قبلت أن تخدم الله والإنسان،التي أحبت الله والإنسان. صُوِّر أيضًا الدور الأبدي للشخص الأنثوي الكامل. وصُوِّر ـ في نموذج الطفل الذي تمسكه بيدها ـ الدور الأمومي للمرأة، والدور القيادي للمرأة التي تقود الكل إلى المسيح. والقديس إيرينئوس يبلور دور العذراء مريم في عبارات رائعة وبليغة، إذ يقول: "وكما أن الجنس البشري صار مقيدًا بالموت بواسطة عذراء (حواء)، هكذا قد إنحلَّ أيضًا بواسطة عذراء (مريم)، وكأنَّ المخالفة العذراوية قد عادلتها الطاعة العذراوية"[٧].

أيضًا نري في أيقونة التضرع يوحنا المعمدان على يسار المسيح. فيرمز يوحنا إلى الوجه الكامل الذكوري في اليوم الثامن. إنه يقف بجسارة وليس بخوف بجوار شخص المسيح. هذه المكانة ترمز لدور الشخص الذكري الكامل في اليوم الثامن. فالمعمدان يُصوِّر دعوة الرجل لأن يكون «صديق العريس»، إنه يقف بالقرب منه ويفرح بالعلاقة الحميمة بينة وبين المسيح[٨]. على الجانب الآخر، فإن يوحنا بكونه السابق يُصوِّر الدور المسبق للرجل بأن يُمهِّد مقابلة البشر والخليقة كلها بخالقها: «هوذا حمل الله» (يو١: ٢٩). أيضًا، ترمز أيقونة التضرع إلى اتحاد الجنسين مرة أخرى. ويتضح هذا من ترتيب الثلاثة أشخاص في تكوين الأيقونة: المسيح في المركز، وعلى اليمين وجه أنثوي: والدة الإله، وعلى

---

[٧] المرجع السابق، ضد الهرطقات ٥:١٩:١.

[٨] انظر يو٣: ٢٩.

اليسار وجه ذكوري: يوحنا المعمدان. بهذه الطريقة، تشير هذه الأيقونة إلى وحدة الطبيعة البشرية المكونة من الجنسين بالسيد المسيح.

(ب) تذوق حالة اليوم الثامن الجديدة:

الليتورجيا الإلهية لها ملمح أخروي واضح. إنها بمثابة تذوق للحالة الجديدة لملكوت الله الأبدي. ومن الواضح أن الليتورجيا الإلهية تبدأ بـ «مجدًا وإكرامًا إكرامًا ومجدًا للثالوث القدوس الآب والابن والروح القدس». هذه البداية تعلن أننا سوف نتذوق من الآن ملكوت الثالوث القدوس الأخروي في داخل الواقع التاريخي. من ضمن هذه الحالات على سبيل المثال، لا يوجد تجزئة للطبيعة البشرية إلى جنسين، لأن داخل مجال الحياة الليتورجية «لا ذكر ولا أنثى» بل «الكل واحد في المسيح» (غلا٣: ٢٨). وأيضًا، في الليتورجيا الإلهية يتناول البشر ـ بشكر ـ الخبز والخمر؛ أي يشترك المؤمنون في العشاء الإلهي، إذ يتغذون بالخبز السماوي؛ يسوع المسيح «طعام كل العالم» الذي يغذي ويمنح الحياة الأبدية. نجد على النقيض «الثمرة المحرمة» التي أدخلت الموت في الطبيعة البشرية والانفصال عن الله.

(ج) تجديد الإنسان مرة ثانية (المعمودية):

تمثل المعمودية المقدسة بداية وعربون لتجديد الطبيعة البشرية وتغيرها الأخروي. يخلع الإنسان الذي يعتمد ملابسه العتيقة ويلبس ملابس بيضاءً جديدة. وهذا يعني أنه بالمعمودية يبدأ مسيرة التغير الجذري والتجديد. عندما يعتمد الإنسان يصير مسيحيًّا، ويرفض «الأقمصة الجلدية» التي للطبيعة الساقطة ويلبس «الأقمصة البيضاء» التي لحالة اليوم الثامن الجديدة. لذلك، تُسبِّح الكنيسة مع بولس قائلة: «أنتم الذين اعتمدتم قد لبستم المسيح»[٩] (غلا٣: ٢٧).

[٩] انظر أف٤: ٢٢-٢، كو٣: ٩-١١.

(د) الصورة المسبقة لاتحاد الطبيعة البشرية (الزواج):

الزواج هو صورة مسبقة لاستعادة وحدة الطبيعة البشرية في المسيح. إنه تمثيل حيَّ لأيقونة التضرع التي ـ كما قلنا ـ تُصوِّر هذه الوحدة البشرية في المسيح الذي أيضًا هو صورة لملء الكائن البشري، فالمسيح هو صورة مسبقة لاتحاد الطبيعة البشرية ثانيةً في جسد واحد. الكاهن هو صورة للمسيح في الزواج فهو يوَّحد الاثنين: الرجل والمرأة.

في الزواج تُعاش العلاقة السرية الأخروية بين الرجل والمرأة، وفيه يبطل التناقض بين الاثنين تدريجيًّا، وتبدأ العلاقة الشخصية التي فيها لا يختفي الواحد في الآخر أو بواسطة الآخر، لكن الواحد يحتوي الآخر بدون أن يختفي أو يُهمَّش.

(هـ) الشهادة المسبقة للوجود الملائكي (البتوليَّة):

إن البتولية في المسيح تُصوِّر مسبقًا حالة الإنسان في اليوم الثامن. الشخص البتول في المسيح: رجل أو امرأة، هو صورة مسبقة للشخص في الدهر الآتي. البتولية هي حالة أخروية، هي السهم الملتهب الذي يوحِّد الحاضر بالمستقبل، التاريخ بالأبدية، هي موهبة الانتظار والاستعداد لحضور المسيح. إن البتول يعطي للزمن، الذي يحيا فيه، شهادة أُخروية للوجود الملائكي. البتولية هي الشهادة الفعلية للوجود الملائكي لليوم الثامن[١٠]، بينما الزواج هو صورة مسبقة للاتحاد الأخروي بين العنصرين الذكوري والأنثوي.

المبادئ الأساسية للسلوك الأخلاقي الجنسي المسيحي:

يقوم السلوك المسيحي على المعطيات الكتابية واللاهوتية المتعلقة بهذا الموضوع كما تحدثنا عنها في المقالات الثلاث الأولى. فالمبادئ الأساسية للسلوك الجنسي المسيحي ـ كما هى معروفة ـ هي انضباط الإنسان قبل الزواج، والإيمان بسر الزواج، وإدانة الزنا، وإدانة الإنحرافات الجنسية (الشذوذ)، وتخطي

[١٠] انظر مت٢٤: ٣٠.

العلاقة الجنسية (البتولية). هذه المواقف والمبادئ ليست عشوائية بل مؤسسة على معطيات لاهوتية وخبرة الكنيسة التاريخية:

(أ) مبدأ الشخص:

تتأسس المواقف المسيحية تجاه السلوك الجنسي على مبدأ هو أن الجنسين شخصان متماثلان ومتساويان، يمثلان وجهان للطبيعة البشرية. هذا البعُد الشخصي للجنسين له أهمية أساسية بالنسبة للسلوك المسيحي. لقد رأينا أن العلاقة بين الجنسين كشخصين تُساهم في تكميل وملء الكائن البشري سواء أكان رجلاً أم أنثى. وكما ساهم الزواج في تخطي الأنا والفردية، وفي الانفتاح على الآخر، فإنه ساهم في الكمال الشخصي للزوجين.

الرجل والمرأة - في حالة الزواج - مدعوان لكي يتخطيا الملمح الفردي والغريزي للجنس sex واستخدام الجنس كوسيلة لتقارب الاثنين، لكي ينفتح الواحد على الآخر، ولكي يتحد معه ويحققا هما الاثنان شركة الطبيعة «في جسد واحد». فعند ولادة أي طفل، يتم تخطي الغريزة الأنانية والعمياء، وتتوسع دائرة الحب وتقترب من دائرة الله.

أما الزنا فإنه يُدان، لأنه علاقة فيها يتلاشى الواحد ولا يُساهم في الكمال الشخصاني للآخر. لا ينحصر سِرّ إدانة الأخلاق المسيحية للزنا في الاختلاط الجسدي في حدّ ذاته بل في أن علاقة الزنا تُهين الكرامة الشخصانية للرجل والمرأة على حدٍ سواء. لأنه في الزنا، ليست العلاقة بين الرجل والمرأة هي انفتاح الواحد على الآخر بل التمركز الأناني لكل واحد حول فرديته وسعادته.

(ب) مبدأ المحبة (العلاقة المتكاملة):

لقد رأينا النتائج الناجمة من السقوط بالنسبة للعلاقات بين الجنسين[١١] خاصة مكانة المرأة في المجتمع. هذه العلاقات كانت تتصف بالعداوة المستمرة

[١١] راجع مقالتنا «الإنسان: ذكر وأنثي(٣). إنسان اليوم السابع (بعد السقوط)» في **مجلة مدرسة الإسكندرية**، السنة الثانية، العدد الأول يناير . إبريل ٢٠١٠، ص.ص. ٩١.١٠٨.

والتصادم بين الجنسين. الحل الوحيد بخصوص تصادم الجنسين هو الإلتزام بهذا التسلسل الذي حدده الإعلان الكتابي: اللّه ـ الرجل ـ المرأة. بالتأكيد، لا يقوم هذا التسلسل على أساس نوعي ولا ينبغي أن يُنظر إليه بمعايير بشرية ونزعة أنانية، أي لا يعني أن «الأول» هو «الأفضل» و«الثاني» هو «الأدنى».

إن الترتيب في الزواج البشري الرجل ثم المرأة هو ترتيب روحي تمامًا، لأن هذا الترتيب يشارك العامل الإلهي «اللّه»، حتى إننا نستطيع أن نقول إنه يخص الثالوث الإلهي الإنساني «اللّه ـ الرجل ـ المرأة». الترتيب في هذا الثالوث الإلهي البشري ليس هو علاقة عمودية حيث الأول ثم الثاني، الأسمى ثم الأدنى، الأكبر ثم الأصغر لكن يجمعهم علاقة محبة، دائرة تكاملية حيث لا يوجد الأول والثاني بل دائرة المحبة. الرجل، كصورة اللّه، يعكس محبة اللّه على المرأة، والمرأة ـ كصورة اللّه ـ ترد نفس المحبة الإلهية إلى الرجل. بهذا المفهوم للمحبة ـ كعلاقة متكاملة ـ يربط السلوك المسيحي الإطار السرائري للزواج بعلاقة دائمة بين الجنسين. وفي هذا الإطار نستطيع أن نفهم تعبير الرسول بولس: «أما المرأة فتهاب رجلها».

لقد حدَّد التعليم الأنثربولوجي المسيحي العلاقة الشخصانية للرجل مع المرأة على أساس المحبة المتبادلة والاحترام لشخصية كل واحد، كما شدَّد الرسول بولس قائلاً: «خاضعين بعضكم لبعضٍ في خوف اللّه. أيُّها النِّساء اخضعن لرجالكنَّ كما للربِّ، لأنَّ الرَّجُل هو رأس المرأة كما أنَّ المسيح أيضًا رأس الكنيسة، وهو مُخَلِّص الجسد. ولكن كما تخضع الكنيسة للمسيح، كذلِك النِّساءُ لرجالهنَّ في كلِّ شيءٍ. أيُّها الرِّجالُ، أحبُّوا نساءكم كما أحبَّ المسيح أيضًا الكنيسة وأسلم نفسه لأجلها، لكي يُقدِّسها، مطهِّرًا إيَّاها بغسل الماء بالكلمة، لكي يُحْضِرَها لنفسه كنيسةً مجيدةً، لا دنس فيها ولا غضْن أو شيءٌ من مثل ذلك، بل تكون مُقدَّسةً وبلا عيبٍ. كذلك يجب على الرِّجال أن يحبُّوا نساءهُم كأجسادهم. مَنْ يُحِبُّ امرأته يحبُّ نفسه. فإنَّه لم يُبْغِض أحدٌ جسدهُ قطُّ، بل يقوته ويُربِّيه، كما الرَّبُّ أيضًا للكنيسة. لأنَّنا أعضاء جسمه، من لحمه ومِن عظامه. مِن أجل هذا يترك الرَّجل أباهُ وأُمَّه ويلْتصِق بامرأته،

ويكون الاثنان جسدًا واحدًا. هذا السِّرُّ عظيمٌ، ولكنَّني أنا أقول من نحو المسيح والكنيسة. وأمَّا أنتم الأفراد، فليحبَّ كلُّ واحدٍ امرأته هكذا كنفسه، وأمَّا المرأة فلتهبْ رجُلها» (أفسس ٥: ٢١ ـ ٣٣).

يعلق القديس غريغوريوس اللاهوتي على عبارة «أما المرأة فتهاب رجلها» قائلاً: "لكي تهب المرأة رجلها يجب على الرجل أن يعتني بالمرأة بكل محبة"[١٢].

(ج) مبدأ التربية Αγωγὴ (التحكم في الملمح الغريزي للجنس):

إن الملمح الغريزي للجنس ـ طبقًا للأنثربولوجية المسيحية ظهر بعد السقوط، وأن علاقة الجنسين ـ بعد السقوط ـ لم تعد تنُظم بواسطة الحُب الأول غير الشهواني الذي كان سائدًا فيما بينهما قبل السقوط. هذا يعني أن الملمح الغريزي للجنس هو غير أصيل. فالجنس sex قبل السقوط وظيفته المحبة وليس مجرد علاقة جنسية بين الجنسين.

تنطلق كل أشكال السلوك الأخلاقي المسيحي من هذه القاعدة الأساسية: ينبغي على الإنسان أن يحيا كإنسان وليس كحيوان؛ أي أن يُخضِع غرائزه الحيوانية، وأن ينظم حياته بإرادته الحُرة. ولكن، طريقة الحياة هذه ليست سهلة للإنسان، ولذلك فهو يحتاج إلى تدريب وتربية ـ بحسب الأخلاق المسيحية ـ ويجب أن تكون تامة وكاملة.

هذه التربية هى معنية بكل قدرات الإنسان النفسية والجسدية وخاصة الجنسية. فالخضوع للإشباع الغريزي الجنسي وخاصة السابق لأوانه يُسبب توقف للنمو النفسي والجسدي للإنسان. على سبيل المثال، العلاقات الجنسية للشباب خارج الزواج تُعطي أفضلية خطيرة لعنصر الجسد، مع الحط من شأن العنصر الروحي الأبدي. والخبرات الجنسية السابقة لأوانها تُضعِف إرادة الشباب وتجعلهم غير قادرين على المهارات الكبيرة والجادة في الحياة.

---

[12] ΒΕΠΕΣ 60,56.

لذلك تشدِّد الأخلاق المسيحية على أهمية التربية حتى يختار الشباب بمفردهم طريقة الحياة المسيحية. إن فرض الأخلاق المسيحية قسرًا هى طريقة مُدانة لأنها ببساطة غير فعالة. فالتربية الجنسية ـ قبل الزواج ـ يجب أن تبدأ مبكرًا جدًا، منذ الطفولة. وهذا يعني، أنها سوف تبدأ من داخل الأسرة كبيئة اجتماعية تحتفظ بمناخ يُحترم فيه المبادئ المسيحية.

(د) مبدأ الاستخدام الصالح أو الشرير (الملامح المحايدة للجنس):

لقد رأينا، أن طبيعة الإنسان قبل السقوط لم تَسُد عليها الخطيئة والشر، لكنها بعد السقوط صارت متغيرة وقابلة للمرض والضعف. والمقياس الجوهري لنوعية الأخلاق السلوكية للإنسان هو اختياره الحُر والمسؤول، إذ أن عمل الإنسان يُدان سلوكيًا كعمل شرير أو صالح من الهدف الذي من أجلة صار.

نفس الأمر يسري على ملامح الطبيعة بعد السقوط، فالشهوات والرغبات ليست في حد ذاتها خطيئة، فرغبات الطبيعة البشرية بعد السقوط يمكن أن تُستخدم لأهداف صالحة. كذلك، نفس الأمر يسري على شهوات الجسد الجنسية. طبيعة الشهوات الجسدية ليست بها سمة الخطيئة؛ أي أن الشهوة الجسدية والغريزة الجنسية ـ مثل كل الشهوات الأخرى ـ هي أخلاقيًّا مجرد وظائف محايدة، بمعني أنها وظائف تميل إلى الناحيتين «الخير والشر»، والنوعية الأخلاقية تعتمد على الطريقة التي يستخدمها الإنسان وعلى الهدف الذي من أجله يستخدمها. أي إذا كان الإنسان يستخدم هذه الوظائف استخدامًا صالحاً أم لا.

الاستخدام الصالح للجنس ـ وفقًا للأخلاق المسيحية ـ يصير داخل الزواج، أما الاستخدام السيئ يتم خارج علاقات الزواج، لأنه لم يدخل في الحياة السامية ويصير لمجرد الإرضاء الغريزي، الأمر الذي يقود الإنسان إلى هلاكه.

(هـ) مبدأ التخطي (الحالة البتولية للوجود):

تُوجد إمكانية ـ في المسيحية ـ لتخطي الجنس sex التي هى البتولية المسيحية وهى طريقة حياة أسمى من الاستخدام الصالح للجنس[١٣]. فالبتولية هي بمثابة موهبة شخصية تتخطى الجنس. البتولية ـ سواء للرجل أو للمرأة ـ هي وجود نبوي يعلن مسبقًا الوجود الأخروي الملائكي. البتولية هي حياة الجهاد التي تتحقق في إطار الرهبنة بشكل خاص وفي إطار الحياة في المسيح بشكل عام. المتبتلون هم الرد العملي على الذين يؤلِّهون الجنس ويعتبرونه شيئًا مطلقًا.

(و) مبدأ محبة البشرية Φιλανθρωπία (شفاء المعاناة الجنسية):

الجنس sex في حد ذاته ليس شرًا ـ كما قلنا ـ لكنه يُسبب مشاكل ليست هينة للإنسان ـ للرجل وللمرأة ـ خاصة عندما نضع في حسابنا أن الجنس يؤثر على وجود الإنسان النفسي والجسدي منذ الطفولة حتى البلوغ.

ترجع مشكلة الجنس إلى ملمحه الغريزي وعلى الاستخدام السيئ له. فممارسة العلاقة الجسدية قبل الأوان تجعل الجنس وظيفة معقدة تلقي بظلالها على كل من الرجل والمرأة. بسب هذا يسبب الجنس معاناة لها وجوه كثيرة. لذا يوجد عدد لا يحصى من الحالات التي يُستخدم فيها الجنس استخدامًا سيئًا، حيث يمثل فيها الجنس سببًا رئيسًا لتعاسة الحياة.

لمواجهة الأزمة الناتجة من الجنس تستخدم الكنسية المسيحية علاج محبة البشر الشفائية. هكذا، بالرغم من أن الكنيسة تدين إنحرافات الاستخدام السيئ، إلا أنها تواجه بطريقة فيها محبة للبشر وبهدف شفائي كل شخص يعاني من نتائج الاستخدام السيئ للجنس. وذلك لأن الكنيسة تعكس شخص المسيح محب البشر. المسيح الذي كرز بأن «من ينظر إلى إمرأة ليشتهيها فقد زني بها في قلبه» (مت٥: ٢٨)، والذي أحب البشر محبة غير محدودة وتسامح

[١٣] انظر ١كو٧: ٢٦.

أمام حالة معينة أُمسكت في ذات الفعل[١٤]، وعندما قبض عليها اليهود، وطلبوا رجمها، قال الرب قوله المشهور: «من كان منكم بلا خطية فليرجمها بحجرٍ».

منذ ذلك الحين يمثل كلام المسيح قانونًا، يرتب موقف وسلوك الكنيسة تجاه خطايا البشر الجنسية. والكنيسة تواجه بتسامح عظيم ومحبة للبشر الذين تسبب لهم الجنس في مشاكل صغيرة أو كبيرة. بالتأكيد، إن الشرط الهام الذي بمقتضاه ينضم البشر الخاطئين للكنيسة هو التوبة. هكذا الكنيسة لا تُدين ضحايا الجنس بل تحترم الشخصيات المنحرفة والمُبعَدة وتصلي لتوبتهم ولردَّهم إلى الكنيسة ولحضنها المُحب، تلك الكنيسة التي أسسها المسيح؛ السامري الصالح.

(ز) مبدأ معايشة الكمال الأخروي وتذوقه:

ليست الأخلاق المسيحية بالنسبة للجنس سلسلة من الوصايا النظرية والمجردة أو مجموعة من المحرمات. فالكنيسة تدعو البشر أن يعايشوا شخصيًا طريقة الحياة المسيحية في العبادة الكنسية الأرثوذكسية. وتبدو الأخلاق المسيحية بالنسبة للجنس ـ خارج العبادة الأرثوذكسية ـ ضعيفة وغير مجدية. فالمسيحيون يعايشون طريقة الحياة المسيحية داخل مجال العبادة الإلهية الأخروية. داخل الليتورجيا الإلهية، يعايش المسيحيون بحواسهم الطبيعة البشرية الكاملة حياة الدهر الآتي، ويرون بأعينهم الأيقونات ويتذوقون جسد المسيح ودمه.

(ح) خاتمة:

سوف يبطل، في اليوم الثامن الأبدي، تجزئة الطبيعة البشرية إلى جنسين. وهذا يعني أن كل واحد سيظل كما هو شخص ذكري أو أنثوي، لكن سيصير الرجال والنساء تامين وكاملين، سوف يعبرون إلى وحدة العنصر الرجالي والنسائي، أي وحدة الطبيعة البشرية. لن يتلاشى الشخص الذكوري أو الأنثوي لكنه سيتفوق وسيرتفع إلى حالة التمام والكمال الجديدة مثلما حدث هذا في شخص المسيح الإله الإنسان. سيصير كل رجل وكل امرأة شخصًا

[١٤] انظر يو٨: ٤.

إنسانيًا كاملاً، إنسانًا تامًا وكاملاً، مثل يسوع المسيح. في اليوم الثامن سيتَّحِد العالم المخلوق مع خالقه. في ملكوت الله الأزلي، سوف يتحرَّر العالم المادي من عبودية الفساد وسيشترك في حرية مجد أولاد الله.

علاقة الإنسان بالبيئة الطبيعية ستجد حلاً مثاليًا في «المدينة الجديدة» الذي صانعها وبارئها هو الله. «ثم رأيت سماءً جديدة وأرضًا جديدة لأن السماء الأولى والأرض الأولى مضتا». إن الكنيسة الأرثوذكسية بحياتها الليتورجية والسرائرية تمنح كل عضو فيها إمكانية أن يحيا على الأرض «الحالة الأخروية» فيما يخص الطبيعة البشرية وفيما يخص العالم المادي كله.